بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تفسير ابن كثير (١٠٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، وصلى الله وسلم على رسول الله.

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في قوله تعالى: {فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} [(٢٤٩) سورة البقرة]: "**يقول تعالى مخبراً عن طالوت ملك بني إسرائيل حين خرج في جنوده ومن أطاعه من ملأ بني إسرائيل، وكان جيشه يومئذ فيما ذكره السدي ثمانين ألفاً**".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله سبحانه: {فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ} يعني لما خرج بهم، وذلك بعد أن تبين لهم ما أوجب انقيادهم لحكمه، وإذعانهم لأمره، وإقرارهم لملكه فتبعوه، وجاء في بعض الروايات أن عددهم كان ثلاثمائة ألف وثلاثة آلاف وثلاثمائة وثلاثة عشر تقريباً، والحقيقة أن الاختلاف في العدد بين هذه الروايات على الرغم من كونها واقعة واحدة، يدل دلالة واضحة على عدم صحتها، فلا يعول عليها في الاستناد، والعلم عند الله.

"**فالله أعلم، أنه قال:** {إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُم} **أي مختبركم بنهر، قال ابن عباس وغيره: وهو نهر بين الأردن وفلسطين، يعني نهر الشريعة المشهور.**

{فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي} **أي: فلا يصحبني اليوم في هذا الوجه**".

مراده من قوله: {فَلَيْسَ مِنِّي} يعني ليس مؤمناً بي، ولا هو من أتباعي أو ممن يصحبني بدليل أنه قال: {فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ}.

"{وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ} **أي: فلا بأس عليه**".

القراءة بالضم للغين في قوله: {غُرْفَةً بِيَدِهِ} هي قراءة أكثر القراء، وخالف في ذلك نافع وابن كثير وأبو عمرو فقرءوها بالفتح {إلا من اغترف غَرفة بيده} ومن أهل العلم من يعد القراءتين –الضم والفتح- بمعنى واحد، وبعضهم يفرق فيجعل الغَرفة بالفتح: ما يكون باليد، والغُرفة بالضم: ما يكون بالإناء، لكن هذا الكلام فيه نظر؛ لأنه قال: {إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ} ولذلك يستبعد هذا المعنى.

وذهب آخرون إلى أن الغُرفة بالضم: الماء المأخوذ، وتقدير أخذه باليد من باب الملازمة، وأما الغَرفة بالفتح: فالمرة الواحد، وهذا الذي اختاره جماعة من المحققين في الجمع بينهما، ومنهم كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-، والله أعلم بالصواب.

"**قال الله تعالى:** {فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ} **قال ابن جريج: قال ابن عباس: من اغترف منه بيده روي، ومن شرب منه لم يرو، وقد روى ابن جرير عن البراء بن عازب قال: كنا نتحدث أن أصحاب محمد -صلى**

الله عليه وسلم- الذين كانوا يوم بدر ثلاثمائة وبضعة عشر، على عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر، وما جازه معه إلا مؤمن، ورواه البخاري بنحوه".

ظاهر الآية أن هذا الصنيع صدر من الذين لم يشربوا من النهر إلا بالمقدار الذي حدده لهم، أولئك الذين نجحوا في اجتياز الاختبار الأول، لكنهم سقطوا بعد ذلك حينما رأوا جيش العدو، وهذا ما عليه عامة أهل العلم.

وذهب ابن جرير -رحمه الله- إلى أن هذه الطائفة هي الطائفة الأولى التي شربت، ووجَّه قوله: بأن هؤلاء الذين شربوا لم يرجعوا وإنما ساروا معه، وأن الله إنما خص بالذكر في كتابه الذين يستحقونه ممن أتبعو الملك الذي عينه رسوله، وأغفل ذكر الباقين الذين نكصوا على أعقابهم، وهذا فيه غرابة، وظاهر القرآن يخالفه؛ لأن الله –عز وجل- قال: {فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ} وهذا يعني أنه لم يبق معه سوى من امتنعوا عن الشرب إلا بالمقدار المحدد لهم، لكنهم لما رأوا كثرة جيش عدوهم تخاذلوا وتناخروا، ولم يثبت إلا فئة قليلة، ورد في بعض الروايات أن عددهم ثلاثمائة وبضعة عشر، والله أعلم.

وهنا لفتة تربوية ومعنى كبير يؤخذ من هذه الآيات فأكثر الناس على هذه الحال التي قصها الله -عز وجل- في خبر طالوت، إذا تأملت حالهم في شتى الأبواب تجدهم يتطلعون إلى أشياء، ثم بعد ذلك لا يسعون إلى تحقيقها، وكثيراً ما يتساقطون إما في الوهلة الأولى، أو في وسط الطريق، أو في آخره، ولا يبقى ولا يستمر إلا أصحاب العزائم القوية، وهذا الأمر لم يسلم منه حتى جيل الصحابة، فإن أصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم- لما سألوه، عن أحب الأعمال إلى الله، فأخبرهم أنه القتال، تراجع وتباطأ وتثاقل من تثاقل، فأنزل الله -عز وجل-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ * إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ} [(٢-٤) سورة الصف] فهذا في القتال، وكذلك في سائر الأمور.

والخلاصة أن الإنسان إذا انتدب نفسه لشيء فلا بد أن يستمر عليه حتى آخر لحظة، ولذلك كان الأولى للإنسان أن لا يدخل في شيء إلا إذا كان كما قال ابن القيم: يعلم أن لديه القدرة عليه، وأنه أصلح له في دينه ودنياه ومعاشه وعاقبة أمره وعاجله وآجله، ثم يستخير الله -عز وجل- قبل أن يقدم عليه.

ولا يكون ممن يجيد الكلام ولا يحسن الفعل، فمثله حسبك به ذماً ونقصاً، ولا يصلح إطلاقاً للمؤمن أن يتحلى بغير هذا الخلق، وإلا فلا يضع نفسه في مثل هذه الأمور، ولا يتكلم في شيء منها، وقد قيل: إن في الصمت حكمة.

"**ولهذا قال تعالى: {فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ} أي: استقلوا أنفسهم عن لقاء عدوهم لكثرتهم**".

ابن جرير يقول: إن الذين {قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ} هم المنافقون والكفار الذين شربوا من النهر، واستمروا مع طالوت، لكن لسوء صنيعهم لم يستحقوا الذكر، والذي يظهر أن هؤلاء ليسوا الذين شربوا أكثر مما قدر لهم، وإنما هم الذين سقطوا في المواجهة والمجابهة إذ إنهم لما رأوا العدو انكسروا وضعفوا، والله أعلم.

"فشجعهم علماؤهم العالمون بأن وعد الله حق، فإن النصر من عند الله ليس عن كثرة عدد ولا عُدد، ولهذا قالوا: {كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاء وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ * تِلْكَ آيَاتُ اللّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ} [(٢٤٩-٢٥٢) سورة البقرة]

أي لما واجه حزب الإيمان -وهم قليل من أصحاب طالوت- لعدوهم أصحاب جالوت وهم عدد كثير قالوا: {رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا} أي: أنزل علينا صبراً من عندك، {وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا} أي: في لقاء الأعداء، وجنبنا الفرار والعجز {وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}".

ذكر أهل التاريخ أن جالوت هو أمير من العمالقة، وكانت بلدتهم في أريحا في الغور من أرض الأردن.

"قال الله تعالى: {فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ} أي: غلبوهم وقهروهم بنصر الله لهم".

الإذن المراد في هذا المقطع من الآية هو الإذن الكوني القدري، لا الإذن الشرعي، والمعنى أن هزيمتهم إنما كانت بإرادة الله وتقديره.

"{وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ}: ذكروا في الإسرائيليات أنه قتله بمقلاع كان في يده، رماه به فأصابه فقتله".

المقلاع: أداة يوضع فيها شيء ليرمى على الخصم، وقد يكون الشيء المرمي صغيراً أو كبيراً.

"وكان طالوت قد وعده إن قتل جالوت أن يزوجه ابنته، ويشاطره نعمته، ويشركه في أمره فوفى له، ثم آل الملك إلى داود -عليه السلام- مع ما منحه الله به من النبوة العظيمة، ولهذا قال تعالى: {وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ} الذي كان بيد طالوت، {وَالْحِكْمَةَ} أي: النبوة بعد شمويل، {وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاء} أي: مما يشاء الله من العلم الذي اختصه به -صلى الله عليه وسلم-".

وبعضهم يقول: {وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاء} مما ذكره الله -عز وجل- في موضع آخر من كتابه، فقد قال سبحانه: {وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ} [(٨٠) سورة الأنبياء]، فعلمه نسج الدروع، والتقدير في السرد، لكن هذا من جملة ما علمه الله -عز وجل- إياه ولا يختص به.

"ثم قال تعالى: {وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ} أي: لولا الله يدفع عن قوم بآخرين، كما دفع عن بني إسرائيل بمقاتلة طالوت، وشجاعة داود لهلكوا، كما قال تعالى: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا} [(٤٠) سورة الحـــج] الآية.

وقوله: {وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} أي: ذو منٍّ عليهم ورحمة بهم، يدفع عنهم ببعضهم بعضاً، وله الحكم والحكمة، والحجة على خلقه في جميع أفعاله وأقواله، ثم قال تعالى: {تِلْكَ آيَاتُ اللّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ}: أي هذه آيات الله التي قصصناها عليك من أمر الذين ذكرناهم بالحق، أي بالواقع الذي كان عليه الأمر المطابق لما بأيدي أهل الكتاب من الحق الذي يعلمه علماء بني إسرائيل، {وَإِنَّكَ} يا محمد {لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ}، وهذا توكيد وتوطئة للقسم.

{تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ

اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} [(٢٥٣) سورة البقرة] **يخبر تعالى أنه فضل بعض الرسل على بعض".**

يحتمل في قوله سبحانه: **{تِلْكَ الرُّسُلُ}** ثلاثة احتمالات:

الأول: يحتمل أن تكون (أل) في الرسل للجنس، فتشمل المفاضلة جميع المرسلين عليهم -الصلاة والسلام-.

الثاني: يحتمل أن يكون المراد عائداً إلى الرسل الذين ذكرهم الله –عز وجل- في هذه السورة، ممن قص الله -عز وجل- خبرهم وأتى على ذكرهم.

الثالث: يحتمل أن المقصود بالرسل أولئك الذين أعلم الله -عز وجل- نبيه -صلى الله عليه وسلم- خبرهم من الأنبياء، ولعل حمل الآية على العموم أقرب هذه المعاني، والله أعلم.

"كما قال تعالى: {وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا} [(٥٥) سورة الإسراء]، وقال هاهنا: {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ} [(٢٥٣) سورة البقرة] يعني موسى ومحمداً -صلى الله عليهما وسلم-، وكذلك آدم كما ورد به الحديث المروي في صحيح ابن حبان عن أبي ذر -رضي الله عنه-"[1].

فأما تكليم موسى لربه فقد ذكره الله في كتابه بقوله سبحانه: **{وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}** [(١٦٤) سورة النساء]، وأما محمد -صلى الله عليه وسلم- فكلمه ربه في ليلة المعراج، حينما نادى الله -عز وجل-: إني قد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي، وأما تكليم آدم فقد ورد في صحيح ابن حبان من حديث أبي ذر -رضي الله عنه- المعروف وفيه: أنه سأل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن عدد الأنبياء والمرسلين...، فلما سأله عن آدم قال: نبي مكلم... والحديث مشهور وفيه ضعف؛ لجهالة بعض رواته، وضعْف بعضهم، ومن أهل العلم من يحسن الحديث، بناء على مجموع طرقه وشواهده، لكن الضعف فيها شديد فهي ما بين رجل متروك أو مجهول.

"{وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ} كما ثبت في حديث الإسراء حين رأى النبي -صلى الله عليه وسلم- الأنبياء في السماوات بحسب تفاوت منازلهم عند الله -عز وجل-، فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية وبين الحديث الثابت في الصحيحين عن أبي هريرة قال: استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود، فقال اليهودي في قسم يقسمه: لا والذي اصطفى موسى على العالمين، فرفع المسلم يده، فلطم بها وجه اليهودي، فقال: أي خبيث! وعلى محمد -صلى الله عليه وسلم-؟، فجاء اليهودي إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فاشتكى على المسلم، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا تفضلوني على الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش فلا أدري أفاق قبلي، أم جوزي بصعقة الطور، فلا تفضلوني على الأنبياء))[2] وفي رواية: ((لا تفضلوا بين الأنبياء))، فالجواب: أن هذا نهي عن التفضيل في مثل هذه الحال التي تحاكموا فيها عند التخاصم والتشاجر، وأن مقام التفضيل ليس إليكم، وإنما هو إلى الله -عز وجل-، وعليكم الانقياد والتسليم له، والإيمان به".

---

[1] - رواه أحمد في مسنده برقم (٢١٥٨٦) (١٧٨/٥)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف جدا لجهالة عبيد بن الخشخاش.

[2] - رواه البخاري في كتاب الخصومات –باب ما يذكر في الأشخاص والملازمة والخصومة بين المسلم واليهودي برقم (٢٢٨٠) (٨٤٩/٢).

وقال بعض أهل العلم: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر ذلك تواضعاً، فقد جاء في حديث آخر: ((لا ينبغي لأحد أن يقول: أنا خير من يونس بن متَّى عليه الصلاة والسلام))[3].

ومن أهل العلم من يقول: إن الممنوع هو ما كان على سبيل العصبية والحمية بأن تحمل صاحبها على انتقاص الأنبياء والازدراء بهم، والتنزيل من قدرهم، فإذا أدت المفاضلة بين الأنبياء إلى هذا فتحرم، ولا شك أن فتح باب المفاضلة على وجه الحمية يؤدي إلى أمور لا تحمد عقباها، خاصة بين الجهلة الذين لا يفقهون في دين الله، ولذلك ذكّر شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- بأن من الناس من إذا سمع الوقيعة في أبي بكر من بعض الرافضة، فإنه يسب علياً -رضي الله عنه-، وأنه كان في صف القتال، إذا قام النصارى بسب النبي -صلى الله عليه وسلم-، قام بعض المسلمين بسب عيسى -صلى الله عليه وسلم-، إغاظة لهم ورداً عليهم، فهذا لا يجوز، وهو وجه من الجمع، وهذه القاعدة عامة فتشمل الكلام على القراءات القرآنية، إذ يوجد في كثير من كتب التفسير ما يسمى بتوجيه القراءات، فحينما يوجهون القراءة تجد كلاماً يشعر بانتقاص القراءة المفضل عليها، وهذا أمر لا يليق لأن هذا كلام الله -عز وجل-، لكن يمكنه الترجيح دون انتقاص أو تطاول على القراءة الأخرى.

ولا شك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- هو أفضل الأنبياء والمرسلين، كما يدل عليه حديث الشفاعة، ويدل عليه قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((آت محمداً الوسيلة والفضيلة))[4]، وقوله: ((أنا سيد ولد آدم...))[5] إلى آخره.

وهناك من أهل العلم من يقول: إنه لا حاجة لهذا الجمع أصلاً، ولا يجوز التفضيل بين الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- على سبيل الخصوص، وأن الآية إنما هي إخبار من الله -عز وجل- على تفضيله بعض الأنبياء على بعض، ولذا ورد أن النبي -صلى الله عليه وسلم- نهى الناس أن يفضلوا بين الأنبياء؛ لأنه أمر ليس إليهم كما قال ابن كثير، وهذا الكلام فيه نظر، والجمع بين الأحاديث لا شك أنه أوفق، والله أعلم.

"**وقوله: {وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ} أي: الحجج والدلائل القاطعات على صحة ما جاء بني إسرائيل به من أنه عبد الله ورسوله إليهم، {وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ} يعني أن الله أيده بجبريل عليه السلام**".

حكى القرطبي عن مجاهد والحسن البصري أنهما قالا: القدُس: هو الله تعالى، وروحه: جبريل، وقيل غير هذا، والله أعلم بالصواب.

"**ثم قال تعالى: {وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ} أي بل كل ذلك عن قضاء الله وقدره، ولهذا قال: {وَلَكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}**.

---

[3] - رواه البخاري في كتاب التفسير -باب تفسير سورة النساء برقم (٤٣٢٧) (١٦٨١/٤)، و- رواه مسلم بلفظ ((لا ينبغي لعبد)) في كتاب الفضائل -باب في ذكر يونس عليه السلام وقول النبي -صلى الله عليه وسلم- ((لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى)) برقم (٢٣٧٧) (١٨٤٦/٤).

[4] - رواه البخاري في كتاب الأذان -باب الدعاء عند النداء برقم (٥٨٩) (٢٢٢/١).

[5] - رواه مسلم في كتاب الفضائل -باب تفضيل نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- على جميع الخلائق برقم (٢٢٧٨) (١٧٨٢/٤).

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [(٢٥٤) سورة البقرة] **يأمر تعالى عباده بالإنفاق مما رزقهم في سبيله، سبيل الخير؛ ليدخروا ثواب ذلك عند ربهم ومليكهم، ويبادروا إلى ذلك في هذه الحياة الدنيا، {مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ} يعني يوم القيامة، {لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ} أي لا يباع أحد من نفسه، ولا يفادي بمال ولو بذله، ولو جاء بملء الأرض ذهباً، ولا تنفعه خلة أحد، يعني صداقته، بل ولا نسابته".**

ذكر ابن القيم مراتب المحبة وعدها عشر مراتب، ونقلها أيضاً من غير عزوٍ شارحُ الطحاوية ابن أبي العز الحنفي في الكلام على المحبة، وعد منها الخلة: وهي المحبة الشديدة التي تخالل شغاف القلب، ولذلك جعلها الله لخيرة أنبيائه إبراهيم ومحمد عليهما -الصلاة والسلام- فقد قال سبحانه: {وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً} [(١٢٥) سورة النساء] وجاء عن أبي الأحوص قال: سمعت عبد الله بن مسعود –رضي الله عنه- يحدث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكنه أخي وصاحبي وقد اتخذ الله -عز وجل- صاحبكم خليلاً))[6] فالخلة درجة عالية في المحبة، وليست مطلق المحبة أو الصداقة أو الصحبة أو القرابة أو نحو ذلك، والمعنى أنه لا تنفع الإنسان خلة أحد، وإن بلغت ما بلغت.

"**كما قال**: {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُونَ} [(١٠١) سورة المؤمنون]، {وَلاَ شَفَاعَةٌ} **أي ولا تنفعهم شفاعة الشافعين، وقوله**: {وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ} **مبتدأ محصور في خبره، أي ولا ظالم أظلم ممن وافى الله يومئذ كافراً، وقد روى ابن أبي حاتم عن عطاء بن دينار أنه قال: الحمد لله الذي قال: {وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ}، ولم يقل: والظالمون هم الكافرون".**

لأن الظلم أوسع من الكفر، وعلى هذا المعنى يصير كل ظالم كافراً، ودخول ضمير الفصل بين طرفي الكلام مشعر بالحصر إضافة إلى تعريف الطرفين -الكافرون والظالمون-، كأنه يقول: الظلم مختص بهم، والظلم له صوره وأشكاله ومنه ما هو دون الكفر، لكن الظلم الأكبر والأعظم المقصود بهذه الآية هو الشرك: أن يجعل العبد لله نداً وهو خلقه ورزقه...، كما قال الله تعالى: {لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [(١٣) سورة لقمان]، وقال: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} [(٨٢) سورة الأنعام] فهم بإشراكهم قد استجمعوا الوصف الكامل من الظلم، هذا هو المراد، والله أعلم.

"{اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} [(٢٥٥) سورة البقرة]، **هذه آية الكرسي ولها شأن عظيم، وقد صح الحديث عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بأنها أفضل آية في كتاب الله، روى الإمام أحمد عن أبي بن كعب: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- سأله: ((أي آية في كتاب الله أعظم؟)) قال: الله ورسوله أعلم، فرددها مراراً ثم قال أبيّ: آية الكرسي قال: ((ليَهْنِكَ العلم أبا المنذر، والذي نفسي بيده إن**

---

[6] - رواه مسلم في كتاب الفضائل –باب من فضائل أبي بكر الصديق –رضي الله عنه- برقم (٢٣٨٣) (١٨٥٥/٤).

لها لساناً وشفتين تقدس الملك عند ساق العرش))[7] ورواه مسلم وليس عنده زيادة ((والذي نفسي بيده)) إلى آخره".

((لِيَهْنِكَ العلم أبا المنذر)) هذا دعاء له كأنه يقول: هنيئاً لك العلم الذي استطعت به أن تستنبط من آيات القرآن على كثرتها أعظم آية في القرآن الكريم من غير سابق علم ولا دراية، فهذا أمر يدل على ثقوب النظر، والقدرة العالية في الاستنباط والاستحضار عند ذلك الجيل الأكمل والرعيل الأنبل.

"روى الإمام أحمد عن أبي أيوب أنه كان في سهوة له تمر".

قال الجزري -في النهاية-: السهوة: بيت صغير منحدر في الأرض قليلاً شبيه بالمخدع والخزانة، وهذا هو الأشهر، وقيل: هو كالصفة تكون بين يدي البيت، وقيل: شبيه بالرف أو الطابق يوضع فيه الشيء، انتهى.

"وكانت الغول تجيء فتأخذ فشكاها إلى النبي صلى الله عليه وسلم".

الغول: الجن أو الشياطين حينما تتمثل للناس في الليل أو تتبدى لهم بصورة آدمي أو غير ذلك، يقال: تغولت الغيلان، يعني تبدت لهم الجن بصور يرونها.

"فشكاها إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((فإذا رأيتها فقل: بسم الله أجيبي رسول الله)) قال: فجاءت فقال لها، فأخذها فقالت: إني لا أعود، فأرسلها فجاء فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ما فعل أسيرك؟)) قال: أخذتها، فقالت لي: إني لا أعود، فأرسلتها فقال: ((إنها عائدة))، فأخذتها مرتين أو ثلاثاً، كل ذلك تقول: لا أعود، وأجيء إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فيقول: ((ما فعل أسيرك؟)) فأقول: أخذتها وتقول: لا أعود، فيقول: ((إنها عائدة)) فأخذتها فقالت: أرسلني وأعلمك شيئاً تقوله فلا يقربك شيء: آية الكرسي، فأتى النبي -صلى الله عليه وسلم- فأخبره فقال: ((صدقت وهي كذوب))[8]، ورواه الترمذي في فضائل القرآن، وقال: حسن غريب، والغول في لغة العرب: الجان إذا تبدى في الليل".

هذا الحديث صحيح ثابت عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهو يدل على صحة وجود هذه الغول -الجن-، ومن أهل العلم من يقول: إن الغول ومثله العنقاء أشياء لا وجود لها ولا حقيقة، وإنما تجري على ألسنة الناس وفي القصص والأخبار وأشعار العرب، ومن ذلك قول صاحب مراقي السعود، لما ذكر مذهب الإمام مالك في بلاد المغرب

وغيره مثل عنقاء مُغْرِب ... في كل قطر من نواحي المغربِ

وهو يعنى أن المذهب الوحيد السائد في نواحي المغرب هو مذهب مالك، ولا يوجد سواه من المذاهب في بلاد المغرب، إنما هي أشبه بخبر العنقاء -طائر يُذكر ولا يُرى-، والله أعلم.

"وقد ذكر البخاري مثل هذه القصة عن أبي هريرة فروى في كتاب فضائل القرآن، وفي كتاب الوكالة، وفي صفة إبليس من صحيحه عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: وكلني رسول الله -صلى الله عليه وسلم-

---

[7] - رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها -باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي برقم (٨١٠) (٥٥٦/١)، و- رواه أحمد في مسنده برقم (٢١٣١٥) (١٤١/٥)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

[8] - رواه الترمذي في سننه برقم (٢٨٨٠) (١٥٨/٥)، وأحمد في مسنده برقم (٢٣٦٤٠) (٤٢٣/٥)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي برقم (٢٨٨٠).

بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: دعني فإني محتاج، وعليّ عيال، ولي حاجة شديدة، قال: فخليت عنه، فأصبحت فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك البارحة؟)) قال: قلت: يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالاً فرحمته وخليت سبيله، قال: ((أما إنه قد كذبك وسيعود))، فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: إنه سيعود، فرصدته فجعل يحثو من الطعام فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، قال: دعني فإني محتاج، وعليّ عيال، لا أعود، فرحمته وخليت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك البارحة؟)) قلت: يا رسول الله شكا حاجة وعيالاً فرحمته وخليت سبيله، قال: ((أما إنه قد كذبك وسيعود)) فرصدته الثالثة فجعل يحثو من الطعام فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهذا آخر ثلاث مرات، إنك تزعم أنك لا تعود ثم تعود، فقال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها، قلت: وما هن؟، قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي: {اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ...} حتى تختم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فخليت سبيله فأصبحت، فقال لي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما فعل أسيرك البارحة؟))، قلت: يا رسول الله، زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها فخليت سبيله، قال: ((وما هي؟)) قال: قال لي: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية: {اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ...}، وقال لي: لا يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، وكانوا أحرص شيء على الخير، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أما إنه صدقك وهو كذوب، تَعْلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة؟)) قلت: لا، قال: ((ذاك شيطان))[9]، ورواه النسائي في اليوم والليلة".

الشياطين: هم كفار الجن، وبعضهم يقول: إن السعالي هم سحرة الجن، إلا أن الحديث الوارد فيه ضعفه أهل العلم.

فائدة:

إقرار النبي –صلى الله عليه وسلم- الشيطان على قوله: لا يزال عليك من الله حافظ، يحمل على أعم معانيه، فهذا الحافظ من الله -عز وجل- يحفظه من شر الآدميين، ومن شر كل ذي شر من السباع والهوام وكل ما يتخوف من جهته، وقوله بعده: ولا يقربك شيطان حتى تصبح، هذه الجملة الأخيرة في الشياطين، وما قبلها في كل ذي شر، والله أعلم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً، ومزيداً إلى يوم الدين.

---

[9] - رواه البخاري في كتاب الوكالة –باب إذا وكل رجلا فترك الوكيل شيئاً فأجازه الموكل فهو جائز، وإن أقرضه إلى أجل مسمى جاز برقم (٢١٨٧) (٨١٢/٢).